# جَرْسُ القُرْآنِ

# دِرَاسَةٌ فِي ظَاهِرَةِ التَّأْثِيرِ فِي السَّامِعِ

م.د. عبّاس صادق عبد الصّاحب

كليّة التربية الاساسيّة - جامعة المثنى

فحوى البحث

هذا البحث يؤسّس لمبدأ يرى أنّ الإعجاز القرآنيّ إعجاز كامن في نغمه، والمتتبع للرّوايات الواردة في تراثنا العربيّ بشأن تأثير القرآن في المتلقّين، يرى بوضوح أنّ سبب دخول كثير من العرب في الإسلام يعود إلى هذا الجرس الموسيقيّ الّذي لا يقاوم، بل يصل الى أن يكون هذا الأثر الموسيقيّ سبباً في موت بعض من استمع له، وليس هناك نصّ عند العرب أو سواهم له هذا الأثر العجيب في المتلقّين.

وقد رأى الباحث أن يكون المنهج الّذي يعتمده هنا في دراسة هذا الأثر الموسيقيّ، منهج يبحث عن المظهر للوصول إلى الجوهر، وقد كانت آراء مارتن هيدجر الضّوء الّذي أنار له السّبيل للوصول الى النتائج التي اثبت الباحث فيها أن الإعجاز القرآني إعجاز نغمي، وأن اكثر من دخلوا الاسلام، كانوا بسبب جمالية هذا النص الإلهي الذي لايقاوم.

والبحث مقسم على مدخل وسبعة مباحث. وقد قامت هيئة التحرير بتعديل العنوان ليكون اكثر تطابقاً مع الموضوع

بسم الله الرّحمن الرّحيم

المقدّمة:

أمّا بعد:

على الرّغم من كثرة الدّراسات الّتي تناولت النّصّ القرآنيّ، إلّا أنّ من يريد أن يتصدّى لدراسته، يحسّ أنّه في أرض خصبة لا تستنفدها كثرة ما يزرع فيها. و في كلّ وقت يجد الدّارس أنّ هناك موضوعاً جديداً يستحقّ الدّراسة، وأنّ هناك شِعْباً لم تطأه قدم أحد من النّاس.

في هذه الدّراسة أسلّط الضّوء على موضوعة الجرس القرآنيّ، والجديد هنا أنّني أرى أنّ الإعجاز القرآنيّ إعجاز نغميّ؛ وقد وجدت من كثرة الرّوايات في تراثنا الإسلاميّ أنّ معظم من دخلوا الإسلام، كان بسبب جماليّة هذا النّغم الّذي لا يُقاوم.

والجديد أيضاً في هذه الدّراسة أنّني درست ظاهرة النّغم القرآنيّ دراسة (مظهرية)؛ لأنّي وجدت أنّ هذا المنهج هو المنهج المناسب، وقد اعتمدت رؤية مارتن هيدجر، وهي رؤية تتاسّس على مبدأ السّماع، فهيدجر يرى أنّ الوجود كلام محض، وليس على الإنسان إلّا أن يُصغي لهذا الكلام. واللّافت للنّظر أنّ رؤية هيدجر الظّاهراتيّة قريبة من الرّؤية الصّوفيّة الإسلاميّة.

قسّمت هـــذه الدّراسة على مدخل وسبعة مباحث. حمل المدخل عنوان «في المنهج»، بيّنت فيـــه المنهج الظّاهراتيّ، ورؤية مارتن هيدجر الّتي اعتمدتها في دراستي. أمّا المبحث الأوّل فحمل عنوان «ظاهراتيّة الوحي القرآنيّ» بيّنت فيه ظاهرة الوحي، وتأثير هذه الظّاهرة على ملايين البشر. وأمّا المبحث الثّاني فحمل عنوان «شعريّة اللّغة القرآنيّة» بيّنت فيه كيف كان تلقّي الجاهليّين للنّصّ القرآنيّ، فقد نظروا إليه أنّه شعر؛ لأنّهم وجدوا لغته مكثّفة تكثيفاً جماليّاً. وأمّا المبحث الثّالث فحمل عنوان «سحر الكلمة» بيّنت فيه كيف نظرت الكتب المقدّسة والحضارات الشّرقيّة القديمة إلى الكلمة، فقد وجدوا فيها سرّ الوجود، وأنّها مبدأ خلق وإيجاد. وأمّا المبحث الرّابع فحمل عنوان «الغناء والقرآن» بيّنت فيه كيف وظّف المسلمون الغناء في قراءة النّصّ القرآنيّ. وأمّا المبحث

الخامس فحمل عنوان «جَـرس القرآن» بيّنت فيه أنّ إعجاز القرآن يعود إلى جهة الجَرس. وأمّا المبحث السّادس فحمل عنوان «التّكرار القرآنيّ» بيّنت فيه كيف وظّف القرآن التّكرار مـن أجل خدمة جَرسه. وأمّا المبحث السّابع فحمل عنوان «الفاصلة القرآنيّة» بيّنت فيه الأثر الصّوتيّ الّذي تحدثـه الفاصلة.

## المدخل: في المنهج

«Phenomenology» كلمـة ذات أصل لاتينيّ تعني علم الظّواهر، وتترجم إلى اللّغة العربيّة بـ"الظّاهراتيّة"، ويُقصد بها العلـم الكلّيّ الّذي يكتفي بدراسة الظّواهر المتبدّية في الشّعور. وهذا المصطلح استعملـه (كانت) في القرن الثّامن عشر حين فرّق بين ظاهر الشّيء وباطنه، واستعمله بعده (هيجل) في القرن التّاسع عشر وأطلقه على علم فلسفيّ خاصّ به هـو "علم ظواهر الرّوح"، كان فيه مثاليّاً إلى أقصى الحدود، ثمّ استعمله (إدموند هوسرل) في القرن العشرين وجعله اسماً لفلسفتـه[1].

والظّاهراتيّة باختزال شديـد تعني الوصول إلى الجوهر عبر المظهر[2].

وخير من مثّل هذه النّظرة إلى اللّغة الفيلسـوف الظّاهراتيّ مارتن هيدجر الّذي لم يرَ في اللّغة وسيلة اتّصال، بل وجد فيها الوسط الّذي تتحرّك فيه حياة الإنسان، وعندما تكون هناك لغة يكون هناك عالم، فاللّغة تسبق الإنسان، بل إنّ الحقيقة تتكشّف من خلال اللّغة؛ وهذا ما حدا بهيدجر أن يحثّ على الاستسلام لسرّ الوجود، وعلى الاستماع للنّجوم والسّماوات والغابات والأرض؛ من أجل أن يتّجه الوجود إلينا[3]. فيقول في دراسته القيّمة عن شعر هولدرلن وتراكل: » فاللّغة ليست مجرّد أداة، من بين أدوات أخرى، يمتلكها الإنسان. بل هي، بشكل عام وقبل كلّ شيء، ما يضمن إمكان أن يجد الإنسان نفسه في قلب تفتّح

(١) ينظر: المذاهب الفلسفيّة المعاصرة. سماح رافع محمّد. مكتبة مدبوليّ. ط١. ١٩٧٣. ٩٥-٩٦.

(٢) ينظر: اتّجاهات التّأويل النّقديّ من المكتوب... إلى المكبوت. محمّد عزّام. وزارة الثّقافة السّوريّة. دمشق. ٢٠٠٨. ٧٩.

(٣) ينظر: مقدّمة في النّظريّة الأدبيّة. ٧١-٧٢.

الوجود. ولا يكون العالم إلا حيث تكون اللّغة»[٤]. فاللّغة عنده كشف للمحتجب وهي تنطق الوجود[٥]، ثمّ يرتفع درجة فلا يرى في هذا الكون إلّا اللّغة متخلّصاً من ثنائيّة اللّغة والوجود، فيقول: «إنّ الكائن البشريّ يتكلّم. وهو يتكلّم في حالة اليقظة وفي الحلم. إذن نحن نتكلّم باستمرار حتّى عندما لا نتفوّه بأيّ كلام، وحين نكون منصرفين إلى الاستماع أو القراءة. ولكن ما ينبغي أن نوضّحه هنا هو أنّ التّكلّم لا ينتج عن رغبة في الكلام سابقة على الكلام نفسه»[٦]؛ ذلك لأنّ الكلام قبل كلّ شيء، وليس هناك إلّا الكلام، وما علينا إلّا الاستماع لهذا الكلام الأزليّ.

ولا يَخفى أنّ هيدجر هنا يتّجه اتّجاهاً صوفيّاً خالصاً، وفي ضوء هذه النّظرة الهيدجريّة ستكون الدّراسة.

(٤) إنشاد المنادى قراءة في شعر هولدرلن وتراكل. مارتن هيدجر. تلخيص وترجمة: بسّام حجار. المركز الثّقافيّ العربيّ. بيروت. لبنان. ط١. ١٩٩٤. ٥٨.

(٥) ينظر: الفلسفة المعاصرة من المكاسب إلى الإخفاقات. جمال مفرج. الدّار العربيّة للعلوم ناشرون بيروت. منشورات الاختلاف الجزائر. ط١. ٢٠٠٩. ٧٨.

(٦) إنشاد المنادى. ٧.

## المبحث الأوّل:

## ظاهراتيّة الوحي القرآنيّ

لم يخلُ زمان من الأزمان من الإيمان بظاهرة الوحي، وأستطيع أن أعدّها «حقيقة الحقائق»، فليس هناك ظاهرة لها مالها من قوّة التّأثير على الجنس البشريّ، وليس هناك ظاهرة شغلت ذهن الإنسان كما شغلته هذه الظّاهرة، فهي «في كلّ مكان وزمان، إن لم تكن في كلّ شيء»[٧].

وعلى الرّغم من أنّ العالم الحديث يعيش في ضوء سلطان العقل، وقد تجرّأ بعض فلاسفة الغرب التّنويريّين فأنكروا الوحي، ورفضوا الدّين جملة وتفصيلاً، وأنكروا وجود الله، إلّا أنّهم عجزوا أن يجعلوا النّاس ينأون بفكرهم عن هذه الظّاهرة، حتّى أنّها لتتجدّد مع ولادة كلّ جيل، تجدّداً قويّاً، ويمكن ملاحظة ذلك من غزارة التّأليف في هذا المجال. وهذا

(٧) المتخيّل والقدسّي في التّصوّف الإسلاميّ. د. الميلوديّ شغموم. دار الحوار. سورية. ط٢. ٢٠١١. ٢٠.

ما يؤكّد أنّ هذه الظّاهرة تضغط على فكر الإنسان، إلى أن تصبح شغله الشّاغل.

ويمكن الاستدلال على كون هذه الظّاهرة حقيقيّة عن طريق ابتداع مفهوم «الظّهور الدّائم للفكرة»، فهذا المفهوم وسية للرّدّ على شبهة من يخالف هذا الرّأي، وهو وسيلة لإثبات أيّ حقيقة، فلولا أنّ ظاهـرة من الظّواهر حقيقيّة لما ظهرت بشكـل دائم، ولظهرت مرّة واختفت مرّات، وربّما لاندثرت مع من تبنّاها إلى الأبد.

إنّ الظّهـور الدّائم لفكرة الوحي هو الدّليل على إثبات الوحي، ومن ثمّ يمكن تشبيه الوحي بالظّواهر الطّبيعيّة: الرّياح والمطر والبرق والرّعد والزّلازل والبراكين في تأثيره بملايين البشر كما يقرّر ذلك محمّد أركَون[٨]. والظّاهراتيّة لا تهتمّ بالوحي بذاته وإنّما بتأثيره على البشر، وطريقة تلقّيه، فيكون شكل الوحي هـو المطلوب، وليس محتواه، فالمهمّ هو الانتقال من درجة غير المؤمن بالوحي إلى درجة المؤمن به لمن لم يكن مؤمناً، وإن كان مؤمناً فما يحدثه الوحي من رهبة وخشوع وبكاء وربّما يصل الحال إلى الموت كما سيأتي.

ومـا يهمّ ليس المعاني الّتي ينطوي عليها الوحـي القرآنيّ، مهما كانت سامية، وإنما ظاهر القرآن، أي لغته، وعلى وجه الخصـوص نغمه الّذي لا يقاوم. وهذا الظّاهـر العجيب ينبئ عن قدسيّته؛ لارتباطه بالله، فالمقدّس «... تقدّس لقرابته من الله»[٩]، فالله تجلّى لمحمّد بهيأة النّغم، كما تجلّى لموسى بهيأة النّار. والله لا يمنح نفسه إلا عبر تجلّياته وآثاره الخارجيّة؛ لاستحالة معرفته من حيث هو هو؛ لذلك نكون أمام تأثيره في الأشياء الّتي يتجلّى لنا عن طريقها: كالصّخر والشّجر والماء والنّجوم[١٠].

(٨) ينظر: القرآن من التّفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدّينيّ. محمّد أركَون. ترجمة وتعليق: هاشم صالح. دار الطّليعة. بيروت. لبنان. ط٣. ٢٠١٢. ٩٨.

(٩) الوحي والقرآن والنّبوة -في السّيرة النّبويّة. هشام جعيّط. دار الطّليعة. بيروت. لبنان. ط٤. ٢٠٠٨. ١٠٧.

(١٠) ينظر: الوحي بين شروط وجوده وتحوّلاته. عائشة عجينة. منشورات الجمل. بغداد. بيروت. ط١. ٢٠١٥. ١٦.

والله هو الأصل الّذي انبثق منه كلّ شيء، وكلّ شيء يحنّ إلى العودة إلى أصله، والمخلوق يحنّ إلى أيّ شيء يذكّره بأصله، ولا تجد شيئاً يذكّر المخلوق بأصله كما النّغم، فهو يذكّره بالصّوت الأوّل بـ «كن فيكون»، والنّغم يُلغي عن المخلوق وطأة المكان، ويجعله كائناً زمانيّاً، «... والزّمانيّة هي عين الوجود»[11] كما يرى هيدجر. فيعيش المخلوق لحظته الماضية لحظة السّماع الاوّل، واللّحظة الماضية تجمع الذّكرى والحنين، فسماع النّغم عودة لصوت قد فقدناه، وها هو يترجّع في آذاننا من جديد[12].

إنّ النّغم القرآنيّ نغم فريد لا يُشبه شيئاً ممّا يألفه النّاس، «إنّ التّشكيلات الإيقاعيّة في -القــرآن -ليست نتيجة يفرضها الوزن، لأنّه وببساطة لا يخضع للوزن ولا للقافية، وليست وليدة تيّارات فنّية أدّت إلى ظهورها، وإنّما هي نابعة أساساً من طبيعة النّصّ القرآنيّ في غنائيّته الإعجازيّة، وفي ظلال مفرداته الوارفة، على الرّغم ممّا قد يتماسّ هذا النّصّ المقدّس مع النّصوص الأخرى ذات التّشكيلات الموسيقيّة الّتي نمّتها الفاعليّة الفنّيّة العربيّة»[13]، ولفرادة هذا النّغم القرآنيّ كان تأثير القرآن بالمتلقّي، «ويأخذ ترتيل النّصّ من الإنسان المسلم البسيط المنفعل في الحسّ الإيمانيّ أيّما مأخذ، حيث يشعر برهبة النّصّ المسموع لكونه النّصّ الإلهيّ الوحيد في وعيه، فيتناغم مع إيقاعاته نفسيّاً، ويشعر بالبِشــــــر والفرح حينما تحمل الآيــــات المقروءة المشتملة على معنى البشرى بطريقة فيها إيحاء عالٍ، ويشعر

(١١) الفلسفة الغربيّة المعاصرة صناعة العقل الغربيّ من مركزيّة الحداثة إلى التّشفير المــزدوج. إشراف وتحـريـر: د. عليّ عبّود المحمداويّ. تأليف: مجموعة من الأكاديميّين العرب. تقديم: عليّ حرب. منشورات ضفاف بـيروت. منشورات الاختلاف الجزائر. دار أوما بغداد. ط١. ٢٠١٣. ج١. ٧٢٣.

(١٢) ينظر: روح الموسيقى. سمير الحاجّ شاهين. المؤسّسة العربيّة للـدّراسات والنّشر. بيروت. لبنان. ١٩٨٠. ٤٦.

(١٣) جماليّة التّلقّي في القرآن الكريم أدبيّة الإيقـاع الإعـجـازيّ نـمـوذجـاً. شـارف مـزاري. اتّحـادّ الكتّاب العرب. دمشق. ٢٠٠٩. ٩٣.

القارئ أو السّامع بعظمة الله حينما تنغّم الآيات المشتملة على الفكرة بطريقة توحي بذلك، وحينما ينغّم القارئ آيات الوعد والوعيد بطريقة مغايرة تتّفق وموضوع الوعد والوعيد يشعر السّامع بمزيد من الخوف...»[١٤]، «وتتجلّى فعّاليّة الموسيقى القرآنيّة في أنّ السّامع ينجذب نحو ما هو أبعد من الموسيقى، إلى تقديس النّصّ وتعظيم الإيمان بالمعنى الّذي يقدّمه، فالخشوع لم ينبنِ على لحظة المعقول في النّصّ، وإنّما على الخوف وعلى سحر الموسيقى، وهذا ما يُفسّر التّفاوت بين استسلام المسلم للقراءة المجوّدة للنّصّ وبين تدبّر النّصّ»[١٥].

إنّ الاستماع إلى الموسيقى القرآنيّة يُثير الانفعال والعاطفة، أمّا تدبّر النّصّ فهو أمر عقليّ، والعاطفة مشتركة بين النّاس، أما العقل فكلّ إنسان له نصيب منه قلّ أو كثُر، وربّما وصل إنسان إلى معنى من المعاني، بينما إنسان آخر لا قدرة له على الوصول إلى هذا المعنى، وربّما نفذ إنسان بعقله إلى الأعماق السّحيقة، بينما آخر يبقى واقفاً عند السّطح. ويبقى المشترك الّذي لا تفاوت فيه على نحو كبير هو الجانب العاطفيّ؛ لذلك كان التّركيز عليه هنا.

## المبحث الثّاني:
## شعريّة اللّغة القرآنيّة

ممـــــا لا شكّ فيه أنّ اللّغة القرآنيّة كانت أشبه شيء بالصّاعقة الّتي نزلت على العرب، فعلى الرّغم من أنّ العرب امتلكوا ناصية البلاغة، ولم يكن لهم إبداع إلا في مجال اللّغة ولا سيّما الشّعر، الّذي كان يمثّل عندهم اللّغة العليا، والشّاعر عند الجاهليّين كان يحظى بمنزلة قريبة من منزلة النّبيّ عند الأمم الكتابيّة: اليهود والنّصارى، إلا أنّهم اعترفوا بعجزهم أمام هذه اللّغة الرّبّانيّة.

وتلقّي الجاهليّين للنّصّ القرآنيّ دليل على عجزهم واعترافهم بتفوّق لغته، ويمكن الاستدلال على ذلك من الرّوايات الواردة في هذا المجال. وسأذكر هنا مجموعة من الرّوايات:

(١٤) حاسّة السّمع في الخطاب الدّينيّ. جمال أبو الرّبّ. منشورات الجمل. بغداد. بيروت. ط١. ٢٠١٤. ١٤٤.
(١٥) حاسّة السّمع. ١٤٩ – ١٥٠.

**الرّوايـــة الاولى**: ما ورد في إسلام أبي ذرّ، قال ابن عبّاس: «لمّا بلغ أبا ذرّ مبعث النّبيّ ﷺ قـال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرّجل الّذي يزعم أنّه نبيّ يأتيه الخبر من السّماء، واسمع من قوله، ثمّ ائتني. فانطلق الأخ حتّى قدمه وسمع من قوله، ثمّ رجع إلى أبي ذرّ فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشّعر. فقال: ما شفيتني ممّا أردت.

فتزوّد، وحمل سنة له فيها ماء، حتّى قدم مكّة، فأتى المسجد، فالتمس رسول الله ﷺ ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتّى أدركه بعض اللّيل (اضطجع) فرآه عليّ فعرف أنّه غريب، فلمّا رآه تبعه، فلم يسأل واحد صاحبه عن شيء حتّى أصبح. ثمّ قام احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظلّ ذلك اليوم، ولا يراه النّبيّ ﷺ حتّى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرّ به عليّ فقال: أما آن للرّجل أن يعلم منزله؟. فأقامـــه، فذهب به معه، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتّى إذا كان يوم الثّالث فعاد عليّ على مثل ذلك، فأقام معه، فقال: ألا تحدّثني ما الّذي أقدمك؟.

قـــال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت. ففعـل، فأخبره. فقال: فإنّه حقّ، وهو رســـول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني، فإنّي إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأنّي اريق الماء، فإن مضيت فاتبعني حتّى تدخل مدخلي.

ففعل، فانطلق يقفوه، حتّى دخل على النّبيّ ﷺ، ودخل معه، فسمع من قوله، وأسلم مكانه»[١٦].

**الرّواية الثانيـــة**: عن أبي بكر وكيف كـــان المشركون يتخوّفون من تلاوته للقرآن، فقد قالت قريش لابن الدّغنة: «مر أبا بكر، فليعبد ربّه في داره، فليصلّ فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به، فأنّا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

فقال ذلك ابن الدّغنة لأبي بكر، فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربّه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثمّ بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره،

(١٦) صحيح السّيرة النّبويّة. ٦١.

وكان يصلّي فيه ويقرأ القرآن، فيتقذّف عليه نساء المشركين وأبناؤهم يعجبون منه، وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدّغنة، فقدم عليهم، فقالوا: إنّا كنّا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربّه في داره، وإنّا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا فانهه، فإن أحبّ أن يقتصر على أن يعبد ربّه في داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك فسله أن يردّ إليك ذمّتك، فإنّا قد كرهنا أن نخفرك، ولسنا بمقرّين لأبي بكر الاستعلان»[١٧].

**الرّواية الثالثة**: وبلغ من تأثير القرآن أن آمن به النّجاشيّ عندما سمع من جعفر بن أبي طالب آيات منه، فعن أمّ سلمة زوج النّبيّ وقد كانت من بين المسلمين الأوائل المهاجرين إلى الحبشة أنّ النّجاشيّ قال لجعفر: «هل معك ممّا جاء به عن الله شيء؟. قالت: فقال له جعفر: نعم، قالت: فقال النّجاشيّ: فاقرأه، فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت: فبكى النّجاشيّ، حتّى أخضل لحيته، وبكت أساقفته، حتّى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلي عليهم.

ثمّ قال النّجاشيّ: إنّ هذا والّذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة»[١٨].

وقد قُدّر لهذه اللّغة القرآنيّة أن تكون هي المعجزة التّي خصّها الله نبيّه محمّداً، كما خصّ كلّ نبيّ بمعجزة، فقد خصّ موسى بالعصا الّتي تتحوّل إلى حيّة تسعى، وخصّ عيسى بإحياء الموتى، وكانت هذه المعجزات تتلاءم مع ثقافة الأمّة الّتي يبعث الله لها نبيّاً، فقوم موسى اشتهروا بالسّحر، وقوم عيسى اشتهروا بالطّب، ومن هنا كان لزاماً أن تكون معجزة محمّد اللّغة، لأنّ اللغة هي كلّ ما يتقنه العربيّ. قال أبو حيّان التّوحيديّ متحدّثاً عن العرب: «وكان ولوعهم بالكلام أشدّ من ولعهم بكلّ شيء، وكلّ ولوع كان لهم بعد الكلام فإنّما كان بالكلام»[١٩].

(١٧) صحيح السّيرة النّبويّة. ٩١.

(١٨) صحيح السّيرة النّبويّة. ٧٥.

(١٩) مثالب الوزيرين. أبو حيّان التّوحيديّ (٤١٤هـ). تحقيق: إبراهيم كيلانيّ. دار الفكر. دمشق. ١٩٦١. ٢٧٤.

إنّ العربيّ كان يمتلك حسّاً لغويّاً مرهفاً، وكانت البلاغة تتفجّر من لسانه كما يتفجّر الماء من نبع؛ لذلك لم يكن دخول كثير من العرب في الدّين الجديد بسبب الحجج والبراهين الّتي ساقها النّبيّ، ولا بسبب مواعظه ولا شخصيّته المحبّبة، بل كان بسبب الانبهار باللّغة القرآنيّة، وكثيراً ما نقرأ في الرّوايات أنّ النّبيّ عندما كان يشرع بقراءة القرآن يعلن الخصم إسلامه[٢٠].

فاللّغة القرآنيّة هي الّتي يُعزى إليها دخول العرب في الدّين الجديد؛ لذلك كان المشركون يتخوّفون من الاستماع لهذه اللّغة المؤثّرة، كما ينقل القرآن ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [سورة فصّلت: ٢٦]. فالغلبة المرجوّة تكون بمقدار الابتعاد عن الاستماع إلى هذه اللّغة القرآنيّة، فلم يكن هناك ما يُخيف المشرك سوى هذه اللّغة. وقد وصل تأثيرها إلى الحدّ الّذي لا يمكن لمخلوق- مهما كان جنس هذا المخلوق ونوعه- مقاومته، كما ذكر القرآن: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[سورة التّوبة: ٦]، ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾[سورة الجنّ: ١]، ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾[سورة الحشر: ٢١].

إنّ اللّغة القرآنيّة بجماليّتها المكثّفة دليل على الذّوق الفنّيّ العالي الّذي كان يمتاز به العربيّ، كما يذكر زكي مبارك قائلاً: «ولنقيّد هنا أنّ القرآن في بلاغته إنّما كان يخاطب قوماً يفهمونه ويتذوّقونه. وفهم القرآن وتذوّقه لا يمكن أن يقع اتّفاقاً وبلا استعداد، بل لا بدّ من أن تكون عند الجماهير الّتي سمعته وتأثّرت به واعتنقت دينه ثقافة أدبيّة خاصّة»[٢١]؛ لأنّ المستمع «... لا يستشعر

(٢٠) ينظر: بلاغة النّور جماليّات النّصّ القرآنيّ. نفيد كرمانيّ. ترجمة: محمّد أحمد منصور وآخرون. مراجعة: سعيد الغانميّ. منشورات الجمل. بغداد. بيروت. ط١. ٢٠٠٨. ٣٨.

(٢١) النّثر الفنّيّ في القرآن الرّابع. زكي مبارك. ج١. ٥٥-٥٦.

حلاوة الأساليب ولا يدرك ما فيها من جمال إلّا إذا كان صاحب ذوق رهيف، له بالأساليب الجميلة مودّة وإلف من طول معاشرة وصحبة»[٢٢].

فلا غرابة في أن ينظر الجاهليّ إلى القرآن بأنّه شعر؛ لأنّه لم يكن عنده جنس أدبيّ أعلى من جنس الشّعر، ولم تكن عنده لغة أعلى من لغة الشّعر، فالشّعر عنده يعلو ولا يُعلى عليه، قال أبو هلال العسكريّ: «وليس شيء من أصناف المنظومات يبلغ في قوّة اللّفظ منزلةَ الشّعر»[٢٣]. «أمّا مزاعم خصوم محمّد بأن القرآن شعر على حدّ قولهم فليست من قبيل الجدل فقط، إذ لا بدّ أنّها قد عكست شعور الكثيرين بذلك. ليس لأنّ القرآن كان في نظر جمهور التّلقي مطابقاً للشّعر ولكن لأنّ الشّعر (وغيره من أنواع الخطاب الإلهاميّ) كان هو الشّيء الوحيد الّذي يمكن أن يُردّ إليه القرآن، أو بعبارة أخرى فإنّ هذه الأنواع من الكلام هي اقلّ الأنواع اختلافاً عن القرآن»[٢٤].

فالنّظرة الجاهليّة إلى القرآن بأنّه شعر لم تستبطن غضّاً من شأنه، ولا تعني أنّ النّصّ القرآنيّ كأيّ قصيدة من القصائد، ولا تعني انّ محمّداً كأيّ شاعر من الشّعراء، بل لم تخلُ من نظرة إعلاء من شأن القرآن، واعترافاً باختلافه عن أساليب الشّعراء، «وما من عالم أو بليغ إلا وهو يعرف ذلك ويعدّ خروج القرآن من أساليب النّاس كافّة دليلاً على إعجازه»[٢٥].

ويبقى الأمر الجوهريّ في الاعتراف بخصوصيّة اللّغة القرآنيّة، وبأنّها أمر إلهيّ، هو الاختلاف الواضح بينها وكلام النّبيّ الّذي لا يَفترق كثيراً عن كلام النّاس على الرّغم من بلاغته، وهذه النّقطة من أقوى الأدلّة على الإعجاز، ومن أكثر النّقاط إبهاماً، ولا جواب لها عند جمهور

(٢٢) البلاغة الصّوتيّة في القرآن الكريم. د. محمّد إبراهيم شادي. مطبعة الرّسالة. الدّقّي. مصر. ط١. ١٩٨٨. ٦٣.

(٢٣) الصّناعتين الكتابة والشّعر. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكريّ (٣٩٥هـ). تحقيق: عليّ محمّد البجاويّ ومحمّد أبو الفضل إبراهيم. المكتبة العصريّة. بيروت. ط١. ٢٠٠٦. ١٢٦.

(٢٤) بلاغة النّور. ١٤٢.

(٢٥) إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة. مصطفى صادق الرّافعيّ. المكتبة التّجاريّة الكبرى. مصر. ط٨. ١٩٦٥. ٢٢٩.

المستشرقين، «إنّ الاختلاف بين لغة النّبيّ الخاصّة به الّتي كان يستعملها عندما يدعو النّاس إلى الإسلام وبين لغة القرآن في المصادر الأولى لهو أمر غريب مثير، فلا تُنسب صفة الجمال على نحو جليّ إلّا للقرآن»[٢٦]. فلم يكن التّحدّي بكلام الرّسول، وإنّما بكلام الوحي الّذي لا علاقة للنّبيّ به إلا من حيث كونه واسطة لنقله إلى النّاس.

## المبحث الثّالث: سحر الكلمة

لم يُنظر إلى اللّغة عند الشّعوب القديمة نظرة نفعيّة، على أساس كونها أداة لتحقيق التّواصل الاجتماعيّ، بل نظروا إليها نظرة تقديسيّة، فالكلمة عندهم أداة خلق وإيجاد، والاعتقاد في أنّ الكلمة أداة خلق روّجت له الكتب السّماويّة، فالكلمة أصل كلّ شيء ومبدؤه، والله -وهو القوّة الخالقة -إنّما هو كلمة، وفي أولى آيات الإنجيل نقرأ: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله»[٢٧]، وفي القرآن أنّ الخلق يكون بالكلمة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

ومن هنا كان اللّقاء بين الشّعر والسّحر في النّظرة العربيّة القديمة، في منابع الموهبة ومصادر الإلهام، فكلّ من السّاحر والشّاعر شخص ملهم يُوحَى إليه ويستمدّ سلطانه من قوى غير منظورة، ويعيش على شفا عالمين: عالم الجنّ وعالم الأنس، عالم الغيب وعالم الشّهادة، يشاركهما هذه المنزلة طرف ثالث هو الكاهن، وعلى الرّغم من الالتباس الكبير أحياناً بين هذه الأطراف الثّلاثة الّتي قد يجمعها الشّخص نفسه، والّتي يكتنفها عالم عجيب مليء بالتّهديد والإثارة السّحريّة، فإنّ مصادر الإلهام تختلف: فملهم السّاحر "جنّي" وملهم الشّاعر "شيطان" وملهم الكاهن "رُئي"[٢٨].

تُعلّق الشّعوب الشّرقيّة أهمّيّة كبرى على معرفة الأسماء، وعلى معرفة كيفية

(٢٦) بلاغة النّور. ٤٤.

(٢٧) إنجيل يوحنّا. الإصحاح الأوّل. ١.

(٢٨) ينظر: الشّعر والسّحر. الدّكتور مبروك المنّاعيّ. دار الغرب الإسلاميّ. بيروت. ط١. ٢٠٠٤. ٦٥.

استعمالها وذكرها، فالأسماء في اعتقادهم لها قدرات سحريّة، وهي ضروريّة لكلّ من الأحيـاء والأموات على السّواء. واعتقدوا بأنّه لو عرف إنسان اسم إله أو شيطان، فناداه به، فإنّ الله أو الشّيطان سيستجيب لأوامره، كذلك معرفة إنسان ما، تجعل الجارّ مثلاً قادراً على فعل الخير أو الشّر لصاحب الاسم، فالاسم الّذي هو موضوع اللّعنة، يجلب الشّر لصاحبه، والاسم موضوع البركة أو صلوات الخير، يمنح صاحبه الطّيّبات[٢٩].

وفي ضوء هذه النّظرة تكون الكلمة موجودة وجوداً مستقلّاً عن الإنسان، فليس الإنسان هو الّذي أوجد اللّغة، بل اللّغة هي الّتي أوجدت الإنسان وسواه، أي أنّ دور اللّغة في هذه الحال ليس تسمية الأشياء، وإنّما إيجادها، فالكلمة تُشير بنحوٍ من الأنحاء إلى القدرة المطلقة، والشّعر يعني وفاقاً لهذه النّظرة: «المثول دائماً في حضرة الآلهة والإحساس بالقرب الجوهريّ للأشياء»[٣٠]، وليس الشّعراء: «... إلّا ناطقين باسم الآلهة»[٣١]

ولرسـوخ هذه النّظرة التّقديسيّة للكلمة لم يستطع الفكر النّقديّ الحديث أن يتخلّص منها، فكان هناك صراع بين نظرتين متناقضتين، «وأنّ الّذي يتصدّى اليوم إلى البحث في الشّعر بحثاً نظريّاً لا بدّ له من أن يستخدم نتائج اللّسانيّات- وهي نتائج ذات صبغة علميّة وصفيّة كـان البحث المؤدّي إليها مستنداً إلى نظرة لا تقول "بقداسة" اللّغة و "نجاعة" الكلمة واتّحاد اللّفظ والمعنى. ولكنّ في البحث النّظريّ والنّقديّ في الشّعر، حتّى في خضمّ ازدهار البحث اللّسانيّ وبعده، مشادّة واضحة وازدواجاً -في التّصوّر وفي الخطاب معاً -بين نمطين من التّناول ومن التّفكير نمط "وصليّ" ونمط "فصليّ": النّمط الوصليّ يرى أنّ اللّفظ لا يُحيل على شيء خارجه بل يتماهى بالشّيء

(٢٩) ينظر: السّحر في مصرالقديمة. واليس بدج. ترجمة: د. عبد الهادي عبد الرّحمن. سينا للنّشر لندن. الانتشار العربيّ بيروت. ط١. ١٩٩٨. ١٤٣.

(٣٠) إنشاد المنادى. ٦٤.

(٣١) الأنطولوجيا هيرمينوطيقا الواقعانيّة. مارتن هيدجر. ترجمة وتقديم وتعليق: د. عمارة النّاصر. منشورات الجمل. بغداد. بيروت. ط١. ٢٠١٥. ٤١.

تماماً فيصير وإيّاه واحداً ومن ثمّ يفقد طابعه الاعتباطيّ التّواضعيّ وتنتفي المسافة بينه وبين المرجع الّذي يُحيل عليه فإذا هو هو. أمّا النّمط الفصليّ فيقول باعتباطيّة العلامة اللّغويّة وبطابعها التّواضعيّ ويكون التّمايز بين الكلمة ومرجعها أمراً مفروغاً منه»[٣٢].

تشترك اللّغة السّحريّة مع اللّغة الشّعريّة بمجموعة مشتركات، «ومناط اللّقاء بين الخطابين السّحريّ والشّعريّ في هذا المستوى أنّ كليهما يستخدم الصّدى الصّوتيّ في تحقيق الانسجام بين الدّوال والمدلـولات ويُعوّل على كثافة اللّغة وضباب العبـارة عبر استهلاك الإرادة في الحدث اللّغويّ المنظّم بحسب إجراءات معيّنة»[٣٣]. والجانب الصّوتيّ هو المعوّل عليه هنا؛ لأثره الّذي لا يمكن التّغافل عنه، وربّما لهذا الأثر الصّوتيّ العجيب كان يُشير أبو نواس، فيُشبّه الشّعر بـ «عقد السّحر»:

**فما زلتُ بالأشعارِ في كلّ مشهدٍ**
**أليّنها والشّعرُ من عُقَدِ السّـحرِ**
**إلى أن أجابتْ للوصالِ وأقبلتْ**
**على غيرِ ميعادٍ إليّ مع العصرِ**[٣٤]

لذلك لا غرابة في أن يصف الوليد بن المغيرة أعلم أهل قريش بفنون الكلام القرآن بأنّه سحر؛ لأثره الّذي لا يقاوم، فعن ابن عبّاس: «أنّ الوليد بن المغيرة جاء رسول الله ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنّه رقد له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: ياعمّ، إنّ قومـك يريدون أن يجمعوا لك مالاً فقال: لِمَ؟. قال: ليعطوكه، فإنّك أتيت محمّداً لتعرض ما قبله.

قال: قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالاً.

قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنّك منكر له.

قال: وماذا أقول؟. فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منّي، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده منّي، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الّذي يقول شيئاً من

(٣٢) الشّعر والسّحر. ١١.
(٣٣) الشّعر والسّحر. ٤٠.
(٣٤) ديـوان أبي نـواس، تحقيق: عبد المجيد الـغـزاليّ. دار الكتاب الـعـربيّ. بـيروت. ١٩٨٤. ٢٦٤.

هذا، والله إنّ لقوله الّذي يقول لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنّه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنّه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتّى تقول فيه.

قال: قف عنّي حتّى أفكّر فيه، فلمّا فكّر، قال: إن هذا إلا سحر يؤثر»[٣٥]. فلم يجد الوليد بن المغيرة شيئاً يليق بالقرآن من شبهة السّحر، لأنّ السّحر يُفرَّق به بين المرء وزوجه، وبين الولد ووالديه، ويؤثّر في النّفوس، وهذا أقرب شيء إلى لغة القرآن الّتي تجعل من مستمعها مسلوب الإرادة، فارغ الفؤاد.

## المبحث الرّابع: الغناء والقرآن

الغناء في اللّغة «من الصّوت: ماطُرِّبَ به»[٣٦]، وفي الاصطلاح «انتظام الأصوات في زمن معيّن ومسافات متوازنة»[٣٧]. و الرّابطة بين الشّعر والغناء رابطة وثيقة، وفي مجال الغناء إن أمكن الاستغناء عن الآلات الموسيقيّة فلا يمكن الاستغناء عن الكلمات بأيّ حالٍ من الأحوال، فالشّعر هو الأساس الّذي يرتكز عليه الغناء، «فمنذ أديون وأرفيوس وحتى عزرا باوند وجون بيريمان يظلّ الشّاعر منتجاً للأغاني ومغنّياً للكلمات»[٣٨].

وقد كان الغناء أيضاً منظوراً إليه نظرة عجائبيّة مرتبطة بالجنّ، وكان الشّعر عند العرب -كرقى السّحرة- إنشاداً، ومن المعلوم أنّ للإنشاد أثراً في إحداث الظواهر النّفسيّة وتحرير المشاعر والانفعالات المكبوتة وتحريك البواطن، والغناء ضروريّ في احتفاليّة السّحر والشّعر والاحتفالات الرّوحيّة، ويُطلق المكبوت. والمشترك بين السّحر والشّعر في هذا المستوى هو ذلك الأثر العجيب

(٣٥) صحيح السّيرة النّبويّة. ٥٨.

(٣٦) القاموس المحيط. العلّامة محمّد بن يعقوب بن محمّد بن إبراهيم الفيرزباديّ (٧١٨هـ). تحقيق وتقديم: د. يحيى مراد. مؤسّسة المختار. القاهرة. ط١. ٢٠٠٨. مادّة (غني). ١٢٦٤.

(٣٧) جماليّة الموسيقى في النّصّ القرآنيّ. د. كمال أحمد غنيم و أ. رائد الدّاية. مجلّة الجامعة الإسلاميّة للبحوث الإنسانيّة. المجلّد العشرون. العدد الثّاني. ٢٠١٢. ٢.

(٣٨) بلاغة النّور. ٢٤٤.

الّذي يمارسه الخطاب الشّفاهيّ المنغّم، والّذي يجعل البيان سحراً[٣٩].

والغناء ممّا تحنّ إليه كلّ نفس، ولم يغفله الوحي، وهذا ما يجده كلّ من يقرأ القرآن، أو يستمع له، «ولم يستغرب من الجمع أحد من أنّ التّغنّي فيه كائن حقّاً، لأنّهم جميعاً مدركون أنّ كلماته المنظومة مرصوفة، وموزونة بجَرسها، ومرصوعة بصوتها، وتتناسب حركاتها، وقد سُمِعت ولها في القلب مكان...»[٤٠]؛ لذلك راح المسلمون يتفنّنون بقراءة القرآن، على طريقة الأغاني، «وممّا ابتدع في القراءة والأداء، هذا التّلحين الّذي بقي إلى اليوم يتناقله المفتونةُ قلوبُهم وقلوب من يعجبهم شأنهم ويقرءون به على ما يُشبه الإقناع وهو الغناء التّقيّ.. ومن أنواعه عندهم في اقسام النّغم (التّرعيد) وهو أن يرعد القارئ صوته. قالوا كأنّه يَرْعَد من البرد أو الألم... (والتّرقيص) وهو أن يروم السّكوت على السّاكن ثمّ ينقر مع الحركة كأنّه في عدوٍ أو هرولة؛ (والتّطريب) وهو أن يترنّم بالقرآن ويتنغّم به فيمدّ في غير مواضع المدّ ويزيد في المدّ إن أصاب موضعه. (والتّحزين) وهو أن يأتي بالقراءة على وجه حزين يكاد يُبكي مع خشوع وخضوع، ثمّ (التّرديد) وهو ردّ الجماعة على القارئ في ختام قراءته بلحن واجد على وجه من تلك الوجوه»[٤١]. ويقترب القرآن المجوّد من فنّ الموسيقى الكلاسيكيّ في استعمال سلّمه الموسيقيّ وفي بناء محطّاته وتلحينها المتنوّع، وكذلك في رؤيته التّلحينيّة ذات النّبر والنّغمة المنظّمة دون أن يتطابق معها. وقد نتجت الفروق بينه وبين الغناء الدّنيويّ من التّقديس الدّينيّ الخاصّ بالقرآن الكريم، فهو يؤدّي إلى تطابق سليم واضح لكلّ مقطع على حدة ومراعاة قواعد النّطق الخاصّة بالقرآن كتلك الّتي تختصّ بالسّواكن وإمكانيّة دمجها مع حرف آخر، في حين أنّ مغنّي الأغنية الفنّيّة تكون له الحرّيّة في أن يُغيّر بعض حروف النّصّ مراعاة للنّغمة والوزن المقصود لدرجة أنّ النّصّ

(٣٩) الشّعر والسّحر. ٥٣.

(٤٠) جماليّة الموسيقى في النّصّ القرآنيّ. ٣.

(٤١) إعجاز القرآن. ٥٩.

قد يُصبح غير مفهوم. ولكن أصول علم التّجويد تؤكّد على أنّ النّصّ المقدّس لن يغرق ويذوب في هذا التّلحين البشريّ، كما أنّه يشترط في الوقت نفسه نغمة معيّنة تتمكّن من الصّمود باستقلال أمام الاعتبارات التّلحينيّة الأخرى وهي غير موجودة في فنّ الغناء[٤٢].

إنّ لقراءة القرآن على طريقة الغناء وقعها المؤثّر في نفس المستمع، وفي كثير من الأحيان يحدث هذا الأثر من غير أن يكون المستمع متنبهاً إلى المعاني القرآنيّة، وهذا شبيه بمن يُصغي إلى أغنية أجنبيّة لا يعرف لغتها، ولكنّه يتأثّر بموسيقاها ولحنها، وشبيه بحالة الطّفل الرّضيع الّذي يُصغي إلى صوت أمّه وهي تقصّ عليه الحكايا، فيُصغي لصوت أمّه ويغفو، ولا يفقه شيئاً من الحكايا. والبعد الظّاهراتيّ في الموسيقى القرآنيّة أنّ هذه الموسيقى لا تُشبه شيئاً ممّا يألفه النّاس، فهي موسيقى تستلب الرّوح استلاباً، وتنفذ إلى القلب من غير استئذان، وتجعل الخيال ينداح في سياحة مُلذّة، ولا يملك الإنسان قدرة على دفعها؛ وربّما لهذا السّبب كان الجاهليّ يتخوّف من الاستماع إلى هذا القرآن؛ لأنّه ما أن يُصغي إليه يجد نفسه قد وقع أسير حبّه، بعد أن كان قالياً له.

(٤٢) ينظر: بلاغة النّور. ٢٥١ -٢٥٢.

## المبحث الخامس: جَرس القرآن

الجَرس لغة هو الصّوت والنّغم» والحروف كلّها مجروسة إلا أحرف اللّين»[٤٣]، وهو كذلك في المصطلح النّقديّ[٤٤]. والجَرس كما يكون في الشّعر يكون في النّثر أيضاً، ويمكن أن يضبط بالسّماع والذّوق[٤٥]. والجَرس هو الأساس في المفاضلة بين الألفاظ عند العرب كما يقول الدّكتور جميل سعيد:

(٤٣) أساس البلاغة. جار الله الزّمخشري (ت٥٣٨هـ). دار إحياء التّراث العربيّ. بيروت. لبنان. ط١. ٢٠٠١. مادة (جرس). ١٠٠.

(٤٤) ينظر: جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغيّ والنّقديّ عند العرب. الدّكتور ماهر مهديّ هلال. دار الرّشيد للنّشر. ١٩٨٠. ١٣.

(٤٥) ينظر: جماليّات الصّوت. عبد العزيز إبراهيم. كتاب الأقلام. بغداد. العراق. ط١. ٢٠١٥. ٣٦.

«وقد جعلوا المفاضلة بين لفظة وأخرى ممّا يخصّ الفصاحة، لأنّ المفاضلة بين لفظتين إنّما تكون في جرسهما أو صوتهما لا في دلالتهما على المعنى»(٤٦).

إلّا أنّ عبد القاهر الجرجانيّ رأى عكس ذلك، فقال: «فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثمّ يجعل الثّناء عليه من حيث اللّفظ فيقول: حلو رشيق، وحَسَن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنّه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف»(٤٧). وقال في كتاب آخر: «فقد اتّضح إذن اتّضاحاً لا يدع للشكّ مجالاً، أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأنّ الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللّفظة لمعنى الّتي تليها، وما أشبه ذلك، ممّا لا تعلّق له بصريح اللّفظ»(٤٨). وإلحاح عبد القاهر على جانب المعنى وإغفاله جَرس الألفاظ لا مسوّغ له، ويخالف الواقع وإجماع الأدباء ونقّاد الأدب، كما يقول الدّكتور إبراهيم أنيس: «فجمال الجَرس في الألفاظ أمر معترف به بين أهل الأدب ونقّاده في كلّ الأمم»(٤٩).

هناك فرق بين مصطلح الفصاحة ومصطلح البلاغة عند العرب، فمصطلح الفصاحة يرتبط باللّفظ، أمّا مصطلح البلاغة فيرتبط بالمعنى. قال أبو هلال: «ومن الدّليل على أنّ الفصاحة تتضمّن اللّفظ، والبلاغة تتناول المعنى أنّ البغاء يُسمّى فصيحاً، ولا يُسمّى بليغاً، إذ هو مقيم الحروف وليس له قصدٌ إلى المعنى الّذي يُؤدّيه»(٥٠). وقال ابن سنان:

(٤٦) دروس في البلاغة وتطوّرها. الدّكتور جميل سعيد. مطبعة المعارف. بغداد. ١٩٥١. ١٠٧.

(٤٧) أسرار البلاغة. عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ). قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمّد شاكر. مطبعة المدنيّ. القاهرة. مصر. ط١. ١٩٩١. ٥-٦.

(٤٨) دلائل الإعجاز. عبد القاهر الجرجانيّ(٤٧١هـ). قرأه وعلّق عليه: أبو فهر محمود محمّد شاكر. مطبعة المدنيّ. القاهرة. مصر، ط٣. ١٩٩٢. ٤٦.

(٤٩) موسيقى الشّعر. د. إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصريّة. ط٢. ١٩٥٢. ٣٠٦.

(٥٠) الصّناعتين. ١٤.

«والفرق بين الفصاحة والبلاغة أنّ الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني»[٥١]. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّ: «الفصاحة بالمعنى الاصطلاحيّ القديم، كان يُراد بها رنين الألفاظ. وهذا قريب من مرادنا بكلمة الجَرس»[٥٢]. «وليس يَخفى أنّ مادّة الصّوت هي مظهر الانفعال النّفسيّ، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصّوت، بما يُخرجه فيه مدّاً أو غنّة أو ليناً أو شدّة، وبما يهيّئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه على مقادير تناسب ما في النّفس من أصولها؛ ثمّ هو يجعل الصّوت إلى الإيجاز والاجتماع؛ أو الاطناب والبسط، بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدى ونحوها، مما هو بلاغة الصّوت في لغة الموسيقى»[٥٣].

ويُعلي الرّافعيّ من شأن الصّوت إلى درجة أنّه يجعل من كلّ شيء صوتاً، ويقسّم الأصوات على ثلاثة أنحاء:

١. **صوت النّفس**: وهو الصّوت الموسيقيّ الّذي يكون من تأليف النّغم بالحروف ومخارجها وحركاتها ومواقع ذلك من تركيب الكلام ونظمه على طريقة متساوقة وعلى نَضْدٍ متساوٍ، بحيث تكون الكلمة كأنّها خطوة للمعنى في سبيله إلى النّفس، إن وقف عندها هذا المعنى قُطعَ به.

٢. **صوت العقل**: وهو الصّوت المعنويّ الّذي يكون من لطائف التّركيب في جملة الكلام، ومن الوجوه البيانيّة التي يُداورُ بها المعنى، لا يخطئ طريق النّفس من أيّ الجهات انتحى.

٣. **صوت الحسّ**: وهو أبلغهنّ شأناً، لا يكون إلا من دقة التّصوّر المعنويّ، والإبداع في تلوين الخطاب،

(٥١) سّر الفصاحة. أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن سعيد بن سنان الخفاجيّ الحلّيّ (ت٤٦٦هـ). دار الكتب العلميّة. بيروت. لبنان. ط١. ١٩٨٢. ٥٩.

(٥٢) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها. عبد الله الطّيّب. دار الآثار الإسلاميّة. الكويت. ط٣. ١٩٨٩. ج٢. ١٣.

(٥٣) إعجاز القرآن. ٢٤٥.

ومجاذبة النّفس مرّة وموادعتها مرّة، واستيلائه على محضها بما يُورِدُ عليها من وجوه البيان، أو يَسوق إليها من طرائف المعاني، يَدَعها من موافقته والإيثار له كأنّها هي الّتي تُحاول أن يتّصلَ أثرها بالكلام، إذ يكون قد استحوذ عليها وانفرد منها بالهوى والاستجابة[٥٤].

بل إنّ الرّافعي يُصرّح بأنّ جَرس القرآن هو مكمن الإعجاز فيه، يقول: «وهذه هي طريقة الاستهواء الصّوتيّ في اللّغة، وأثرها طبيعيّ في كلّ نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الّذي يخاطب به كلّ نفس تفهمه، وكلّ نفس لا تفهمه، ثمّ لا يجد من النّفوس على أيّ حال إلا الإقرار والاستجابة؛ ولو نزل القرآن بغيرها لكان ضرباً من الكلام البليغ الّذي لا يُطمع فيه أو في أكثره، ولما وجد فيه أثر يتعدّى أهل هذه اللّغة العربيّة إلى أهل اللّغات الأخرى، ولكنّه انفرد بهذا الوجه للعجز، فتألّفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو أبدل بغيره أو اقحم معه حرف آخر، لكان ذلك خللاً بيّناً، أو ضعفاً ظاهراً في نسق الوزن وجَرس النّغمة، وفي حسّ السّمع وذوق اللّسان، وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف وإفضاء بعضها إلى بعض»[٥٥].

إنّ جماليّة الجَرس القرآنيّ هي نقطة الاستهواء، فالسّامع لا تشدّه المعاني كثيراً، بل ربّما تنفّره، لا سيّما إذا كانت هذه المعاني تتناقض مع عقائده الّتي يتبناها، فالقرآن طرح عقيدة التّوحيد، في حين كان العرب المشركون يؤمنون بتعدّد الآلهة، والقرآن طرح عقيدة البعث، في حين كان العرب المشركون لا يؤمنون إلا بالحياة الدّنيا، ويَعدّون الموت فناءً، لكنّهم انجذبوا إلى القرآن من جهة الصّوت لا المعنى، حتّى إذا أخذ القرآن بمجامع قلوبهم نفذوا بعد ذلك إلى المعاني القرآنيّة، وتأمّلوها مليّاً.

وسأذكر هنا مجموعة من الرّوايات وردت في كتاب أصول الكافي تبيّن أثر الجَرس القرآنيّ في المتلقّي، وتبيّن منزلة

(٥٤) ينظر: إعجاز القرآن. ٢٤٩ – ٢٥٠.

(٥٥) إعجاز القرآن. ٢٤٧.

الصّوت الجميل، وبأيّ نغمة يجب أن يقرأ القرآن:

**الرّوايــة الأولى:** «عن الزّهريّ قال: قال عليّ ابن الحسين عليه السلام: لو مات مَن بين المشرق والمغرب لما استوحشت بعد أن يكون القرآن معي. وكان عليه السلام إذا قرأ «مالك يوم الدّين» يكرّرها حتى كاد أن يموت»(٥٦).

**الرّوايــة الثّانية:** «قال حفص: فما رأيت أحــداً أشدّ خوفاً على نفسه من موســى بن جعفر عليه السلام ولا أرجأ النّاس منه وكانت قراءته حزناً، فإذا قرأ فكأنّه يخاطب إنساناً»(٥٧).

**الرّوايــة الثّالثة:** «عن أبي عبد الله قال: إنّ القرآن نزل بالحزن فاقرؤوه بالحزن»(٥٨).

**الرّواية الرّابعة:** «عن محمّد بن حسن بن شمّون قال: حدّثني عليّ بن محمّد النّوفليّ، عن أبي الحسن عليه السلام قال: ذكرت الصّوت عنده فقال: إنّ عليّ بن الحسين عليهما السلام كان يقرأ فربّما مرّ به المارّ فصعق من حسن صوته وإنّ الإمام لو أظهر من ذلك شيئاً لما احتمله النّاس من حسنه، قلت: ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وآله يصلّي بالنّاس ويرفع صوته بالقرآن، فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يحمل النّاس من خلفه ما يُطيقون»(٥٩).

**الرّواية الخامسة:** «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى موسى ابن عمران عليه السلام: إذا وقفت بين يديّ فقف موقف الذّليل الفقير وإذا قرأت التّوراة فاسمعنيها بصوت حزين»(٦٠).

**الرّواية السّادسة:** «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قــال رسول الله صلى الله عليه وآله: لم يُعطَ أمّتي أقلّ من ثلاث: الجمال والصّوت الحسن والحفظ»(٦١).

**الرّواية السّابعة:** «عن أبي عبد الله عليه السلام

(٥٦) الأصــول من الكـافي. أبـو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكلينيّ الـرّازيّ (٣٢٨هـ). صحّحه وعلّق عليه: عليّ أكبر الغفّاريّ. دار الكتب الإسلاميّة. طهران. ١٣٨٣هـ ش. ج٢. ٦٠٢.

(٥٧) الأصول من الكافي. ج٢. ٦٠٦.

(٥٨) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٤.

(٥٩) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٥.

(٦٠) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٥.

(٦١) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٥.

قال: قال النّبيّ ﷺ: إنّ من أجمل الجمال الشّعر الحسن ونغمة الصّوت الحسن»[٦٢].

**الرّواية الثّامنة:** «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال النّبيّ ﷺ: لكلّ شيء حلية وحلية القرآن الصّوت الحسن»[٦٣]..

**الرّواية التّاسعة:** «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما بعث الله عزّ وجلّ نبيّاً إلا حسن الصّوت»[٦٤].

**الرّواية العاشرة:** «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان عليّ بن الحسين صلوات الله عليه أحسن النّاس صوتاً بالقرآن وكان السّقّاؤون يمرّون فيقفون ببابه يسمعون قراءته، وكان أبو جعفر عليه السلام أحسن النّاس صوتاً»[٦٥].

**الرّواية الحادية عشرة:** عن أبي جعفر عليه السلام: «... إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ الصّوت الحسن يرجّع فيه ترجيعاً»[٦٦].

**الرّواية الثّانية عشرة:** «عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: إنّ قوماً إذا ذكروا شيئاً من القرآن أو حُدّثوا به صعق أحدهم حتّى يرى أنّ أحدهم لو قطعت يداه أو رجلاه لم يشعر بذلك؟. فقال: سبحان الله ذاك من الشّيطان ما بهذا نعتوا إنّما هو اللّين والرّقة والدّمعة والوجل»[٦٧].

ولمنزلة الصّوت الجميل ورد في الحديث: «لله أشدّ أذناً إلى الرّجل الحسن الصّوت بالقرآن يجهر به من صاحب القينة إلى قينته»[٦٨]، «أي أنّ الله لا يستمع لشيء كما يستمع إلى الصّوت الجميل، وإذا كان الله يُعجب بالصّوت الجميل فمن باب أولى أن ينذهل المخلوق إذا ما استمع إلى كلام الخالق»[٦٩]، ومن هنا رُويَ أنّ الله تعالى قد خاطب «... الذّرّ في الميثاق الأوّل بقوله: ألست

(٦٢) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٥.
(٦٣) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٥.
(٦٤) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٦.
(٦٥) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٦.
(٦٦) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٦.
(٦٧) الأصول من الكافي. ج٢. ٦١٦ -٦١٧.
(٦٨) السّماع لابن القيسرانيّ (ت٥٠٧)، تحقيق: أبو الوفاء المَراغيّ، لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ، القاهرة، مصر، ٢٠٠٣. ص٤٠-٤١.
(٦٩) المعنى الشّعريّ عند محيي الدّين بن عربيّ في ترجمان الأشواق. د. عبّاس صادق عبد الصّاحب. دار ومكتبة البصائر بيروت. دار المدينة الفاضلة بغداد. ط١. ٢٠١٤. ٢٨١.

بربّكم، واستفرغت عذوبة سماع ذلك الكلام الأرواح.. فلذلك كانت تطرب وتتحرّك كلما سمعت أمراً مطرباً، لأنّه يُذكّرها بالسّماع الأوّل»[٧٠]. والسّماع عند الصّوفيّة على ضربين «فطائفة سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة وهذا لا يُسمع إلّا بالتّمييز وحضور القلب، وطائفة سمعت النّغمة وهي قوت الرّوح فإذا ظفر الرّوح بقوته أشرف على مقامه وأعرض عن تدبير الجسم فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة»[٧١].

وقد جعل الله هذا الطّريق -أي طريق الجَرس -معبراً لبلوغ الحقائق الإلهيّة، «فلا سبيل إلى انكشاف المرتبة الإلهية إلا بعد سماع صلصلة الجَرس»[٧٢].

وقد كان الوحي يأتي إلى النّبيّ في مثل صلصلة الجَرس، فعن عائشة زوج النّبيّ أنّ الحارث بن هشام سأل النّبيّ فقال: «يارسول الله كيف يأتيك الوحي؟. فقال رسول اللهﷺ: أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجَرس، وهو أشدّه عليّ، فينفصم عنّي، وقد وعيت ما قال»[٧٣]، فصلصلة الجَرس تؤدّي إلى الانتباه بعد غفلة، وإلى التّيقّظ بعد نوم، وإلى الاهتداء بعد ضلالة، وهي القنطرة لبلوغ الحقائق الإلهيّة.

## المبحث السّادس: التّكرار القرآنيّ

للتّكرار أهمّية بالغة في الشّعر، ولا يمكن الاستغناء عنه، وهو أحد مقوّمات الإيقاع فيه، و «... تَعلّق الشّعراء بهذا الضّرب من فنون الكلام كان لأمر يحسّه الشّاعر في ترجيع ذات اللّفظ وما يؤدّيه هذا التّرجيع من تناغم الجَرس وتقويته»[٧٤]. «ومن المعلوم أن للتّكرار

(٧٠) الأنوار القدسيّة في معرفة قواعد الصّوفيّة، عبد الوهّاب الشّعرانيّ (ت٩٧٣)، تحقيق: طه عبد الباقي سرور و السّيّد محمّد عيد الشّافعيّ، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٨. ج٢، ص ١٧٩.

(٧١) التّعرّف لمذهب أهل التّصوّف. الإمام أبو بكر محمّد بن إسحاق البخاريّ الكلاباذيّ(٣٨٠هـ). تحقيق: آرثر جون آربري. الورّاق. بغداد. ط١. ٢٠١٠. ٢٤٤.

(٧٢) الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. الشّيخ عبد الكريم الجيليّ(٨٠٥هـ). منشورات الجمل. بغداد، بيروت، ط١. ٢٠١٣. ١٦٣.

(٧٣) صحيح السّيرة النّبويّة. ٥٢.

(٧٤) جرس الألفاظ. ٢٦٣.

أهمية قصوى في عمل الشّعر مطلقاً: فهو من أبرز مقوّماته الفنّيّة والمعنويّة، ثمّ إنّ له فيه -فيما يتّصل بزاوية النّظر الّتي ننظر منها إلى الشّعر في مقامنا هذا -قيمة بالغة تتّصل بكونه، شأنه شأن جميع أشكال الانتظام البشريّ، لا يستمدّ دلالته إلّا من السّياق المعقّد الذّي يندرج ضمنه. هذا السّياق ينيط به في تجربة الشّعر العربيّ، على ما يبدو لنا، وظيفتين على الأقل: إحداهما وظيفة تأكيد وإلحاح... أما الوظيفة الثّانية للتّكرار، في المقام الّذي نحن فيه، فهي وظيفة التّعزيم أو الرّقية اللّفظيّة، وهي وظيفة يضطلع التّكرار الشّعريّ في نطاقها بإثارة الأشياء والأشخاص والظوهر بغية حملها على الانصياع للعزم الذاتيّ المُعلّق على الشّعر»[٧٥].

تضـــع نازك الملائكة قانونين لأيّ تكرار هما:

**القانـــون الأوّل**: قانون الإلحاح، فتقول عنه: «إنّ أبسط قاعدة نستطيع أن نصوغها بالاستقراء ونستفيد منها هي أنّ التّكرار، في حقيقته، إلحاح على جهة هامّة في العبارة يَعنى بها الشّاعر أكثر من عنايته بسواها. وهذا هو القانون الأوّل البسيط الّذي نلمسه كاملاً في كلّ تكرار يخطر على البال. فالتّكرار يسلّط الضّوء على نقطة حسّاسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلّم بها»[٧٦].

**القانـــون الثّاني**: قانون التّوازن، فتقول عنه: «وثاني قاعدة نستخلصها هي أنّ التّكرار يخضع للقوانين الخفيّة الّتي تتحكّم في العبارة، وأحدها قانون التّوازن. ففي كلّ عبارة طبيعيّة نوع من التّوازن الدّقيق الخفيّ الّذي ينبغي أن يُحافظ عليه الشّاعر في الحالات كلّها. إنّ للعبارة الموزونة كياناً ومركز ثقل وأطرافاً، وهي تخضع لنوع من الهندسة اللّفظيّة الدّقيقة الّتي لا بدّ للشّاعر أن يعيها وهو يدخل التّكرار على بعض مناطقها»[٧٧].

وفي القرآن نجد التّكرار حاضراً

(٧٥) الشّعر والسّحر. ٤٨.

(٧٦) قضايا الشّعر المعاصر. نازك الملائكة. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان. ط١٤. ٢٠٠٧. ٢٧٦.

(٧٧) قضايا الشّعر المعاصر. ٢٧٧ -٢٧٨.

بشكل ملحوظ، الأمر الّذي يؤدّي إلى تكوين جوّ موسيقيّ محبّب، ففي سورة «الصّافّات» يكرّر القرآن كلمة «سلام» خمس مرّات، فالقرآن حين يستعرض قصص النّبيّين يختم القصّة بالسّلام على النّبيّ صاحب القصّة، بدءاً من نوح، ففي الآية التّاسعة والسّبعين يختم الله القصة بـ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ثمّ يتناول القرآن قصّة إبراهيم، و في الآية التّاسعة بعد المائة يختم القصّة بـ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ثمّ يتناول القرآن قصّة موسى وهارون، وفي الآية العشرين بعد المائة يختم القصّة بـ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾، ثمّ يتناول القرآن قصّة إلياس، وفي الآية الثّلاثين بعد المائة يختم القصّة بـ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾، ثم يتناول القرآن قصّة لوط من غير أن يختم قصّته بالسّلام عليه، ثم يتناول القرآن قصّة يونس من غير أن يختم قصّته بالسّلام عليه، ثمّ يذكر المرسلين ذكراً مجملاً، ويختم الحديث عنهم بقوله﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ في الآية الحادية والثّمانين بعد المائة. ولا ريب في أنّ التّسليم هنا على الرّغم من إيقاعيّته المحبّبة، قد أدّى وظيفة دلاليّة، فقد منح الله النّبيّين احتراماً خاصّاً، وجعلهم خطّاً واحداً في كونهم دعاة إلى الله الواحد، وهذا الخطّ قد ختم بمحمّد الّذي لم يكن بدعاً في ذلك، وهذا ما ينفي التّعجّب في كون الله قد بعث نبيّاً، فإرسال النّبيّين سنّة إلهيّة، وهذا ما أراد إيصاله لنا هذا التّكرار.

وفي سورة "القمـــر" نجد أنّ القرآن يكرّر عبارة ( فهل مـــن مدّكر) خمس مرّات. ولا يخفى أنّ التّكرار هنا يأتي لخدمة قضيّة مهمّة هي الاعتبار، فالتّكرار هو تأكيد وإلحاح على معنى محوريّ قد لا ينتبه إليه السّامع للوهلة الأولى، فالسّامع قد يكون مأخوذاً بالأجواء الموسيقيّة للنّصّ، لكنّه بعد لأيٍ سينتقل إلى النّفاذ إلى المعاني.

وفي سورة "الرّحمن" يكرّر القرآن آية ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾إحدى وثلاثين مرّة، وهذا التّكرار هو الأقوى في السّور القرآنيّة، فليس هناك تكرار في القرآن بلغ هذا المقدار من الإلحاح والتّوكيد كما نجده في سورة الرّحمن.

وهذا التّكرار هنا له وظيفتان الأولى: جماليّة من حيث خلق موسيقى خاصّة لم يألفها المستمع، وهذا التّرديد للآية أشبه شيء بما يحدث في الأغنية، فالمطرب يعود بين مدّة وأخرى إلى فقرة معيّنة من الأغنية، ؛ ليشدّ من انتباه السّامع، وهذا ما حدث بالضّبط في السّورة القرآنية. والثّانية: دلاليّة من أجل الضّغط على انتباه السّامع ليُدرك المعنى، والمعنى الّذي يُريد أن يوصله الله إلى المستمع هو التّذكير بالنّعم الإلهيّة، هذه النّعم الّتي يتغافل عنها الإنسان في خضمّ مشاغله الدّنيويّة، وفي خضمّ تبنّيه للأفكار الفاسدة الّتي تجعله ينأى بفكره بعيداً عن الفطرة السّليمة، فالتّكرار هنا مثل الحبل الّذي يشدّ المستمع حتّى لا ينفرط عقده، ويضيع في متاهات الدّروب.

وفي سورة "المرسلات" يكرّر القرآن آية ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرّات، وإيقاعيّة هذا التّكرار تخلق الرّهبة في المنكرين، وليس هذا التّكرار لغواً لا فائدة وراءه؛ «لأنّ كلّ واحد منها ذكرت عقيب آية غير الأولى، فلا يكون تكراراً مستهجناً، ولو لم يكرّر كان متوعّداً على بعض دون بعض»[٧٨].

والتّكـــرار يمتدّ بامتداد السّور القرآنيّة، وحضـــوره لافت للنّظر، وهو يخدم الموسيقى، ولا يخفى أنّ الموسيقى- أيّ موسيقى في الشّعر وغيره -تتّخذ من التّكرار مقوّماً رئيساً لها.

## المبحث السّابع: الفاصلة القرآنيّة

لقـد وظّف القرآن في إيقاعيّته معظم تقنيّات الشّعر، لكن بطريقته الخاصّة به، فقد وظّف القافية توظيفاً جميلاً، فلم يتقيّد بها تقيّداً تامّاً، كما هو الحال في القصيدة التي تنتهي أبياتها بقافية واحدة لا تتغيّر أبداً؛ بسبب وظيفتها و «وظيفتها ضبط الوزن»[٧٩]. وهذا التّغيّر الّذي سلكه القرآن من أجل إبعاد كون القرآن شعراً، ورفع الرّتابة عن المستمع،

(٧٨) أسرار التّكرار في القرآن الكريم. تاج القرّاء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانيّ ( النّصف الثّاني من القرن السّادس). دراسة وتحقيق: عبد القادر أحمد عطا. دار الاعتصام. مصر. ٢١٣.

(٧٩) موسيقى الشّعر بين الاتّباع والابتداع. دكتور شعبان صلاح. دار غريب. القاهرة. ط٤. ٢٠٠٥. ٣٩٣.

ولمتابعة الموسيقى المعنى. يقول الرّافعي: «وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صور تامّة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متّفقة مع آياتها في قرار الصّوت اتّفاقاً عجيباً يلائم نوع الصّوت والوجه الّذي يُساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنّون والميم، وهما الحرفان الطبيعيّان في الموسيقى نفسها؛ أو بالمدّ، وهو كذلك طبيعيّ في القرآن، فإن لم تنتهِ بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للون المنطق بما هو أشبه وأليق بموضعه، وعلى أنّ ذلك لا يكون أكثر ما أنت واجده إلا في الجمل القصار، ولا يكون إلا بحرف قويّ يستتبع القلقلة أو الصّفير أو نحوهما مما هو ضروب أخرى من النّظم الموسيقيّ»[٨٠]. و «الفاصلة لها أثر في نسق الكلام، واعتدال المقاطع، وتجعل موقعه حسناً في النّفوس، وتؤثّر فيه تأثيراً لا ينكر، وتناسب الأطراف، وتماثل الحروف، ممّا يريح السّامع، ويجذب انتباهه»[٨١].

أنّ معظم السّور القرآنيّة تركّز في فواصلها على حرفي النّون والميم لا سيّما الطّويلة منها ك «البقرة» و «آل عمران» و «الأعراف» وسواها من السّور، وهما حرفان كثيراً ما يستعملان في قوافي القصائد والأغاني، و يخلقان جوّاً موسيقيّاً حزيناً، ويتناسبان مع طول النّصّ الّذي قد يولّد بعض السّأم؛ لذلك يعمل هذان الحرفان «... على مدّ الصّوت بغرض تحقيق نوع من التّنغيم الطّروب»[٨٢].

ولا يعني هذا أنّ السّور القصيرة لا تستثمر هذين الحرفين، ففي سورة» الحمد» مثلاً:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

(٨٠) إعجاز القرآن. ٢٤٦.

(٨١) الفاصلة القرآنيّة. د. عبد الفتّاح لا شين. دار المرّيخ. الرّياض. ١٩٨٢. ٢٢.

(٨٢) جماليّة التّلقّي في القرآن الكريم. ٩٩.

هذه السّورة الّتي يتلوها المسلم عشر مرّات في صلواته، تتراوح الفاصلة فيها بين حرفي الميم والنّون، وهذه السّورة هي مناجاة بين العبد وربّه، وكلّ كلام هو مناجاة؛ لأنّ «... المنفرد هو الّذي لا يمكن أن يكون وحيداً بمعنى أنّه ليس منفصلاً، معزولاً، ولا صلات له»[٨٣]. وحين يكون المصلّي مستغرقاً في مناجاته، وهو يكرّر هذين الحرفين الّذين يكونان مسبوقين بجرف المدّ الياء الّذي يخرج بنفس عميق، يستشعر الحزن، وتنهمر من عينيه الدّموع، فتشتدّ آصرة القرب بينه وربّه؛ لذلك لا عجب أن يصرخ وسط السّورة بـ «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين»، دلالة على القرب الشّديد بينه وربّه، ودلالة على أنّه أضحى لا يرى سوى محبوبه؛ فيعيش قارئ سورة «الحمد» جوّاً حالماً، بعيداً عن قسوة الواقع؛ لأنّ إيقاع السّورة «الصّدى الحالم» كما يسمّيه الصّغير[٨٤].

وأعجب السّـــور عندي سورتا «الفلق» و «النّـاس»، فسورة «الفلق»: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

هذه السّورة تنبني انبناءً موسيقيّاً عجيباً على وفق الشّكل الآتي:

... ق... ق

..... ب

... د... د

فهناك فاصلتان تنتهيان بصوت «القاف»، ثم تأتي فاصلة تنتهي بصوت «الباء»، ثمّ تأتي فاصلتان تنتهيان بصوت «الدّال». والفاصلة «وقب» أشبه ما تكون بالقطع، وقد صوّرت ولوج اللّيل خير تصوير، وكأنّ اللّيل سارق يقتحم المكان من دون أن يلحظه أحد بخفّة ومهارة. وهذه السّورة على الرّغم من استعمالها ثلاثة أصوات مختلفة في فواصلها، إلا أنّ هذه الأصوات اشتركت في أنّها جميعاً من أصوات القلقلة. والسّورة ركّزت على موضوعي القلق والخوف، وقد

(٨٣) إنشاد المنادى. ٥١.

(٨٤) ينظر: الصّوت اللّغويّ في القرآن الكريم. د. محمّد حسين عليّ الصّغير. دار المؤرّخ العربيّ. بيروت. ط١. ٢٠٠٠. ١٧٦.

كانت الموسيقى بارعة في تصوير هذين الموضوعين.

أمّا سورة النّاس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

على عكس سورة «الفلق»، فهي تمتاز بموسيقى مهدّئة للأعصاب، وهذا الهدوء لم يكن ليتمّ إلا بفضل استعمال الفاصلة الّتي تنتهي بصوت السّين، و «صوت السّين رخو مهموس»[٨٥]، وتركيز السّورة على صوت السّين جعل التّنفّس إيقاعيّاً منتظماً، والتّنفّس الإيقاعيّ يبعث الرّاحة والسّكينة، وهو علاج نفسيّ[٨٦]؛ لذلك كان لهذا الصّوت قدرة على تنويم الإنسان، وإبعاد القلق والهموم عنه، وهو من الأصوات البريئة الّتي نسمعها عندما يعمّ الهدوء، وعندما يبدأ الصّباح بزقزقة العصافير.

(٨٥) الأصوات اللّغويّة. الدّكتور إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصريّة. ٢٠٠٧. ٧٤.

(٨٦) ينظر: جدليّة الزّمن. غاستون باشلار. ترجمة. د. خليل أحمد خليل. المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر. بيروت. ط٤. ٢٠١٠. ١٧١.